

والبيئة أيضا . . .

أما لهذا الليل من آخر . . . ؟
للدكتور محمد عوض محمد

من الموضوعات التي لا بد أن تمر بنا جميعا - الموازنة بين الوراثة والبيئة. هذا الموضوع بمثابة المطية الذلول التي لا تخرج أضعف الناس وأصغرهم من أن يمتطيها. ثم يجبل إله الوهم أنه أضحى فارسا من كبار الفرسان! ولقد طالما نشاهد صفارا ناشئين وقد جلسوا على المنابر - ووقف مدا ليتصر للوراثة ويراهما كل شيء. وذاك ليتصر للبيئة ويدعي لها كل شيء، وقد لا يكون للتكلمين بعد إلام صحيح بمعنى الوراثة او البيئة .

ولابأس بهذه الأشياء، ما دام يراد بها العبت البرية، وتميرين الطلاب على الحوار - ولكن كلام الاحداث فيما يجملونه قد يغدو وباللاسف - عادة تلازمهم مدى الحياة. وقل أن يوجد بين الموضوعات ما يتطلب الدقة في الفهم، والتأني في الحكم كوضوع الوراثة والبيئة .

فأما الوراثة فيراد بها ما يرثه الناس عن آباؤهم وأجدادهم من الصفات التي اختلفت بها سلالتهم التي ينتمون اليها. فتأثير الوراثة هو تأثير الجنس والسلالة والقائلون بالوراثة يزعمون ان هذا الشعب راق لانه من جنس راق، والآخرون منقطع لان جنسه منحط

لسنا ندرى غير ما قاله الجبرتي . وفيه اختى حجاج الحضري أيضا بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر . اللهم ان في صفوف الابطال أفذاذا لم يسمهم التاريخ ولم تعمم ذاكرة الاحفاد ليؤدوا اليهم ما يستحقون من الاجلال... ولئن كان حجاج الحضري أحد هؤلاء، فقد حفظ لنا المؤرخ المصرى اسمه في عرض حديثه، وهو يمر به مروراً سريعاً. غير أنى اتجه الى ذكره بقلب خاشع تملؤه دعوات الترتيب - تتردد فيه أسمى عواطف الاجلال والتسجيل . ألا يستطيع مصرى أن يبول عند قراءة سيرة حجاج إن في المصرى أفة وعزة؟ وإن له نخوة وسطوة؟ وإن بين جنبيه همه وقوة...؟

محمد فريد أبو حديد

وكذلك ابن شعبة شيخ الجزائرين وخلافه، ومعهم طبول وزمبور والمدافع... الى ان وصلوا الى الازبكية فزلوا بيت محمد على باشا، وحضر المشايخ والاعيان وقرأوا المرسوم . وبذلك تم انتصار الشعب، واخذ يتطلع الى الحكم والسياسة. وما كان ذلك ليرضى الجنود الاثرى الذين تعودوا ان يكونوا سادة غير منازعين. فلما انتهى النضال الكبير بدأ التنافس والتنازع بين أهل مصر وبين الجنود. وكان حجاج مثل ذلك التنازع والتنافس. قال الجبرتي في بعض يومياته بعد ذلك «وقع بين حجاج الحضري والعسكر مقاتلة جبهة طيلون وقتل بينهم اشخاص، فرأى أهل الحكم أن يعودوا بذلك الشعب الى مدرته الأولى، وسكيتة القديمة، فبدأوا يزعمون منه السلاح بعد أن انقضت الحاجة الى حمله. فغضب الناس لذلك حيناً، غير أنهم أرغموا على الادعاء فأذعنوا. ولكن نفس حجاج الحضري لم تدع بتلك السهولة بل قاوم وناضل وكابر. قال الجبرتي في وصف ذلك .

« وفيه بنى حجاج الحضري حائطاً وبوابة على الرملة عند عرصات الخلة » ولكن يستطيع فرد أن يقاوم دولة ولو كان من بناتها؟ لا، فان حجاجاً لم يستطع الا الهروب من القاهرة التي جال فيها تلك الجولات، ولجأ الى جيش الالتي بك، وكان عند ذلك مرابطاً بحيشته يترقب الفرار، ويتحين الفرص، جاثماً طوراً يعد إطفاح بالصعيد ومرة عند دمنهور بالبحيرة.

غير ان المقام لم يطب لذلك البطل المصرى في جيش الالتي بك وكيف يطيب له المقام : وهو ابن البلد الصميم، يقيم بين جيش من الممالك يتخون عليه بأنوفهم. وهو المعتز بكرامته الذى يرى نفسه مثيلاً وكفواؤهم؟ قال الجبرتي في وصف ذلك :

« وفيه أينما حضر حجاج الحضري الرميلاتى الى مصر، وقد كان خرج من مصر بعد حادثة خورشيد باشا خوفاً من العسكر وذهب الى بلده بالمناوات. ثم ذهب عند الالتي، وأقام في معسكره الى هذا الوقت، ثم ان الالتي طرده لتكته حصلت منه، فرجع الى بلده، وأرسل الى السيد عمر مكرم فكتب له أماناً من الباشا، فحضر بذلك إلا ان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له في خطته بأنه على ما هو عليه في حرفه، وصناعته ووجهته بين اقرانه . . .

غير أن نفسه لم تكن لترضى بعد ذلك بالبقاء في صفوف العامة الذين قضى عليهم أن يعودوا الى ازواجهم واكتفائهم بالعيش العادى، فماختفى مرة أخرى من القاهرة، ولا ندرى بعد ذلك له مقراً. أقتله الجنود انتقاماً من كبريائه؟ أهرب الى وطن غير مصر؟

وسكان ذلك القطر بخلاء لأن بلادهم جبلية أو أهل هذا الاقليم بلها .
لأن هواءهم حار رطب : وأولئك كذابون حاشون لان مناخهم
متقلب لا يستقر على حال .

ان هذه الآراء لها للاسف صورة خلافة تسترعى الذهن
وتلفت النظر . وفي عالم سكانه لا يلزمهم أجداد الفكر وانعام النظر
فيما يلقي اليهم من الكبر - كثيرا ما تسيطر تلك الأحكام وتشتر بين
الناس وترسخ زواجرهم . وقد لا يكون في بعض هذه الأحكام
ضرر كبير . ولكن الخطب المولم ما ذكره الاستاذ حسن جلال
من أن أناسا يقال لهم أنهم اذلة لأن هواء بلادهم يقضى بهذا ، وقد
كتب عليكم الذل سرمدنا الى يوم القيامة ، فيصدقون ما يقال لهم
ويؤمنون به . مع انه ليس في العالم أمة إلا ويصح أن يقال لها مثل
هذا الكلام في وقت من الأوقات .

•••

كتب أحد الجغرافيين الامريكان ، واسمه إلسودت هنتجت
يصف تأثير الهواء في الناس فقال : إن المناخ الذي يلائم حياة
الإنسان أكثر من سواه ، ويساعد على النشاط والجد والرق في
سلم الحضارة هو مناخ بلاد اليابان (في الجزء الجنوبي منها) .
وبعض جهات الجزر البريطانية . ثم تكون ملائمة كل إقليم آخر
للإنسان بقدر ما يبينه وبين هذه الجهات من الشابهة .

هنا ما ذكره ذلك الكاتب الجغرافي العصري ، ومن المفيد أن
تقارن هذا الحكم بما ذكره ابن خلدون في مقدمته عن الأقاليم
السبعة (٢) وملائمتها للإنسان . وقد ذهب هذا الكاتب الاجتماعي
العربي الى أن الأقليم الرابع هو أطيب الأقاليم جميعا ، وأكثرها ملائمة
للعمران ، وسكانه أرقى حضارة من سكان سائر الأقاليم . أما ما يليه
شبهلا وجنوبا فدونه منزلة ، وما يلي ذلك أقل صلاحا نظرا لكثرة
الحرارة أو لكثرة البرودة ..

والاقليم الرابع الذي عناه ابن خلدون هو الواقع بين دائرتي
العرض الثلاثين والأربعين .. وفيه الاندلس وبلاد المغرب وإيطاليا

(٢) في عرف الجغرافيين القدماء تبدأ الأقاليم من خط الاستواء الى درجة
ارض السبعين شمالا . فن خط الاستواء الى درجة عشرة الاقليم الأول ، ومن
الدرجة العاشرة الى العشرين الثاني ، ومن العشرين الى الثلاثين الثالث . ومن الثلاثين
الى الأربعين الرابع . وهكذا الى السابع الذي ينتهي عند درجة العرض السبعين
وليس وراءها عمران . كما أنه ليس وراء خط الاستواء من جهة الجنوب عمران .

وأما البيئة فهي ما ينشأ بينه الانسان من أرض وسما ، وهواء
وماء ، وجبال وأنهار ، وصحارى وبحار وما إليها . ولهذه في نظر
القائلين بالبيئة الاثر الاكبر في رفع قوم وخفض قوم ، واعزاز شعب
واذلال آخر .

ولقد حاولت في كلمة سابقة ان أضرب بعض أمثلة للضلال
الذي يحيط فيه كثير من الناس حين يتكلمون عن الاجناس في غير
تدبر ولا حذر . وهمت ان أكتب كلمة ثانية لأضرب أمثلة
أخرى للضلال الذي يحيط فيه الناس حين يتكلمون عن تأثير البيئة
ثم جاءت كلمة الاستاذ حسن جلال فحضرتني إلى الماضي في هذا السبيل
ان في شرائع كثير من الدول ما يضمن مجازاة من يمارس
الطب اذا لم يكن من أهل الطب ، ولكن ليس في الشرائع - وبالاسف -
ما يكفل معاقبة من يمارس اتاريخ وليست له دراية بالتاريخ ،
أو يمارس الجغرافيا وليس له كبير الملم بالجغرافيا ، وهكذا الحال
في كثير من فروع العلم . فاستطاع ان يقتحم هذه الميادين من ليست
لديه العدة اللازمة لها

وهكذا رأينا اناسا يحكمون بين الاجناس ويرفون جنسا
على جنس ، وسلالة فوق سلالة ، دون أن يأخذوا العدة لمثل هذا
الحكم بدراسة الشعوب والاجناس في كل مكان وفي كل زمن (١)
كذلك ما ينبغي لاحد أن يحكم في تأثير البيئة : في تأثير الهواء
والماء والارض والسماء في أخلاق الناس وطباعهم ، الا اذا درس
كل بيئة على سطح الأرض ، وقارن بين المتشابه وغير المتشابه ، ووازن
بين المتفق والمختلف ، بحيث يستطيع أن يدرك ما اذا كانت البيئات
المتشابهة قد أكسبت أهلها خلافا متشابهة . وأن هذا التشابه سيه
طبيعة الاقليم لأى سبب آخر قد يكون خافيا .

ومع هذا فان الذين صناعتهم دراسة البيئات الطبيعية هم عادة
أرهد الناس في اصدار تلك الأحكام القاسية الشاملة كأن يقال
مثلا : إن سكان هذه البلاد جبنا . لأن أرضهم سهلة منبسطة !

(١) ذكرنا في العدد الماضي الرأي الذي ذهب اليه بعض الكتاب في تحصيل
الجنس المتوتون على سائر السلالات . وكان من الصاعقات الطيبة أن أتى الاستاذ
بيرين في الجمعية الجغرافية ثلاث عاشرات عن حالة أوربا بعد سقوط القولة الرومانية
وجاء في كلامه أن بلاد البرق الأدنى مثل - روميا ومصر كانت تيمث الى أوربا ساعا
ثمينة مثل الحرير وورق البردي وفي مقابل هذه السلع كانت أوربا ترسل عبدا وإنا .
من أبناء وبنات هذه الاجناس الشمالية بالذات . فهذه السلالات التي يدعى لها اليوم
التفوق على سائر الاجناس كانت من الموان بحيث يتابع بيع السلع

ليس لأحد أن يرجع شيئا من هذا الى طبيعة الأرض أو الماء أو الحرارة . فيضل ويضل . وأولى هؤلاء القضاة أن يبدأوا بدراسة كل اقليم وطبيعة كل بلد من بلدان العالم . إذن لعلوا أن كثيراً ما بهم به أصل مصر - صدقا أو كذبا - شائع فاش في أقاليم تختلف عن مصر كل الاختلاف ، وهناك أقاليم لا يقل هوائها حرارة عن هواء مصر ، وأرضها سهلة كارض مصر ، تعيش فيها شعوب لا يشك أحد اليوم في رقيها وثقوبها .

٥٥٥

ومن الامثلة الشائعة في تأثر البيئة ما يقال من أن المناظر الطبيعية تخلق الشعراء وتوحى بالشعر والموسيقى . وقد زار أحد كتاب الامريكان بلدة سترانفورد حيث ولد شكسبير ، فصور له الخيال الجامح أن مثل هذه البيئة - والتي ليس لها في الواقع ما يميزها - هي الجديرة بأن توحى الى رجل مثل شكسبير تلك الدرامات الخالدة ، والقصائد الرائعة . ولولا جعل هذا الامريكاني لعلم أن شكسبير لم يقض في هذا الاقليم غير زمن الحدائة . ولم يسكتب فيه شيئا بل قضى معظم حياته في لندرة تلك البلدة المظلمة التي لا يمكن أن توحى من تلقاء نفسها بشيء جميل .

وإذا سلنا بأن المناظر الطبيعية الجميلة تثير الخيال وتبعث الشعر في النفوس ، فاننا سلاق من غير شك صعوبة عظيمة في تحليل تلك الظاهرة الغريبة وهي قلة نبوغ الشعراء الفحول في سويسرة التي لا يضاهيها في أوروبا بلد في أنهارها الجارية ، وجبالها الشاخنة ، ومناظرها الرائعة .

أليس الحقيقة اننا نتورط كثيراً ، وتندفع في الاستدلال والاستنتاج ، ونقضى بأحكام شاملة واسعة من غير حذر ولا تدبر ، بل وأحيانا من غير فهم لما نريد الخوض فيه ؟!

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجره البريد

ومصر وسوريا والعراق وايران . وقد ذكر ابن خلدون صراحة أن الاقليم السادس قليل العمران . وهواؤه لا يبعث على الحضارة . مع ذلك في هذا الاقليم السادس بالذات يقع معظم بريطانيا العظمى غلام يدل هذا كله ؟

انه يدل دلالة صريحة على أن كلا الكاتبين لم يبن حكمه على فهم صحيح لطبيعة الهواء وتأثيره في العمران . بل كل ما فعله أن نظرا الى العالم الذي يعيش فيه ، وإلى الافكار المختلفة التي نالت في عصره حظا وافرا من الحضارة . وحكم بأن هوائها أحسن الأهوية ، وأقليمها أطيب الأقاليم . رأى ابن خلدون أن العمران في عصره واقع في بلاد كلها في الاقليم الرابع ، فحكم بأنه أكثر الأقاليم ملامة ، ورأى هنتجتون أن انكلترة واليابان في مقدمة دول العالم اليوم فحكم بأن هواء انكلترة خير هواء . ومضى أتبع للافتراض الاستوائية - أن تنهض قريبا أو بعيداً ، فسيرى الناس ابن خلدون آخر ينادى بكل جرأة أن الاقطار الاستوائية ، المنضوب عليها في الوقت الحاضر - هي أبداع وأزهي وأزهر الأقاليم ذات الحضارة والعمران .

ومن غريب أحكام ابن خلدون ما ذكره في حكمه على أهل السودان بأنهم موصوفون بالخفة وكثرة الطرب وحبهم للضحك بسبب حرارة الهواء ، ولو بقي ابن خلدون الى وقتنا هذا لأدعته أن يعلم أن من أكثر الناس خفة وضحكا الاسكيمو سكان الجبال القطبية ! وشبه بهذا ما ذكره المقرئ في حكمه على أهل مصر مما ذكره الاستاذ أحمد أمين : من أن البيئة المصرية قد أثرت تأثيرا سينا في كل ما بمصر من إنسان وحيوان . وما ظنه حجة علينا أن الأسد لا يعيش في مصر . وهذا صحيح . لو كان الأسد في مصر يوما من الأيام لكان العمران وحده كفيلا بإبادته والقضاء عليه كما أيد التمساح من نيل مصر . ولكن من يخبر المقرئى رحمه الله بأن بلاد الانكلتري ليس فيها أسد ، وليس فيها من الوحوش الضارية سوى الانسان . وكذلك الحال في الجزء المتمدن من أمريكا وفي معظم أوروبا ؟ تلك العبارة البادية السخف هي من فصل طويل للمقرئى . ملو . بالعبارات الكثيرة في ذم مصر وهوائها ومائها وأهلها وفي ذم أخلاقهم وأجسامهم وطبايعهم . وكلها عبارات لا تزيد قوة على العبارة السالفة .

ولقد يجوز لكاتب أن ينقد أخلاق المصريين وأن يرميهم بصفات الضعف إن شاء ، أو الجبن أو الانهماك في الشهوات . ولكن